العرب
الخميس 2020/01/30
السنة 42 العدد 11602

أدب مثير للجدل يفضح الوجه المظلم للتاريخ الأفريقي

العبودية ليست ذنب الرجل الأبيض وحده.. الأفارقة أيضا مارسوها

كثيرا ما نعترض على الكتب التي تفضح حقيقة أوضاعنا، لاسيما إذا كتبت بلغة أجنبية، لقارئ أجنبي، ونحكم بأن ذلك يثبّت الصورة التي يرسمها الغرب لنا، فندينها كما ندين استعمار الغرب للشعوب المغلوبة على أمرها، والجرائم الفظيعة التي ارتكبها ضدها، خاصة في أفريقيا، من شمالها إلى جنوبها، ولكن ما موقفنا إذا أكد مؤرخو هذه القارة وكتّابها أن الجرائم قبل الاستعمار كانت أشدّ فظاعة؟

لأفريقيا أكثر من وجه

أبوبكر العيادي
كاتب تونسي

عام 1968، صدرت في فرنسا رواية "واجب العنف" لكاتب مالي شابّ يدعى يامْبو أولوغيم (1940–2017) توّجت بجائزة رينودو، ثم صودرت لاحتوائها على جمل ومقاطع لكتاب معروفين، قال الكاتب إنه وضعها بين معقفين، ولكن الناشر "سُويْ" حذفها دون استشارته.

ورغم سحب الرواية من المكتبات الفرنسية لمدة ثلاثين سنة، فإنها ظلت حاضرة في أذهان كل مهتم بالتاريخ الأفريقي، من مؤرخين وكتاب وباحثين، ذلك أنها تخالف التاريخ الأفريقي الرسمي كما يروى في المحافل، ويُتداول في الكتب ووسائل الإعلام، ويدرَّس في المؤسسات التربوية.

الجرأة تسبب الاتهام

تسرد رواية "واجب العنف" حكاية سلالة آل سيف، وهي أسرة تمارس التوحيد وعبادة الأصنام، نصفها يهودي ونصفها مسلم، كانت على رأس إمبراطورية متخيلة تدعى ناكيم، ومن خلالها يصف الكاتب تاريخا أفريقيا لا يؤدي النظام الإقطاعي فيه إلى نهضة، بل إلى فترة دموية ينتشر فيها الاسترقاق بكل أشكاله، من الإذلال المعنوي والمادي إلى الاتجار بالبشر.

> في أفريقيا ثمة تواصل بين السلطات المنحرفة في المرحلة الاستعمارية وبين الفاسدين الذين جاء بهم الاستقلال

وقد تميز أخلاف تلك الأسرة بعجزهم عن الحكم، وخمولهم، ولجوء بطانتهم وحاشيتهم إلى أعمال شنيعة يُزَجّون بها أوقاتهم، ولم يتورع أولئك الحكام عن التحالف مع تجار الرقيق من العرب والأوروبيين لبيع رعاياهم، حتى دخول المستعمرين الفرنسيين، الذين تحالفوا مع حكومة فتية تشكلت في فرنسا.

وكانت فترة حكم آخر ملوك تلك الأسرة، سيف بن إسحاق الهيت، أكثرها فظاعة. فبعد انهزامه أمام القوات الفرنسية، استعمل عبيده لفرض سلطته، ولجأ إلى تعذيب كل من يهدد مجتمعه البدائي. وقد اتّخذ الكاتب من العائلة الحاكمة وشخصية سيف نماذج بيّن من خلالها أن تاريخ أفريقيا ما قبل المرحلة الكولونيالية لم يكن مسكونا بالبطولات الأسطورية وحدها، وأن الحروب القبلية والاسترقاق والفساد كانت منتشرة قبل الاستعمار، ما جعل روايته مراجعة لما استقر في ذاكرة الشعوب الأفريقية ووجدانها، رغم أن الإمبراطورية التي يتحدث عنها من وحي الخيال. وهي بذلك تناقض تماما الأدب الأفريقي المناضل الذي يتغنى بالتربة الأفريقية، والشعر السنغوري الذي يهيب بالزنوجة ويعلي قيمها.

ومن الطبيعي أن يوصم الكاتب بعدئذ بكل النعوت، ليس في أفريقيا وحدها، بل حتى في العالم العربي، فقد وصفته المصرية رضوى عاشور في كتابها "التابع ينهض، الرواية في غرب أفريقيا" بكونه "مُصابا بكراهية الذات" وحتى "بالميزانثروبية أي كراهية البشر"، مثلما وصفت روايته بـ"كتاب مريض"، وذكرت أن منحه جائزة يدخل في ما أسمته الإرهاب الثقافي الغربي الذي يمارس "الإعلاء من شأن كاتب والحط من شأن كاتب آخر". ولو كان الأمر كذلك لما رصدت مالي جائزة أفريقية باسمه، وما لاذ هو بالصمت حتى وفاته في بلاده التي عاد إليها نهائيا منذ عام 1970، فالرجل لم يكتب رواية خيالية صرفا بغرض الإساءة إلى بلده وقارته وبني جلدته، بل اعتمد عدة مراجع تاريخية، ذكر بعضها في مؤلفه.

لئن اتهمه سنغور بالخيانة، فإن أولوغيم وجد السند لدى كتاب آخرين مثل الكونغولي آلان مابانكو الذي عدّ الرواية إعلانا عن ولادة النقد الذاتي في الآداب الأفريقية، بينما أدرجها المفكر الكاميروني أشيل امْبيمْبي ضمن تيار ما بعد الحداثة الأفريقية مع أعمال أحمد كوروما، وصوني لابو تانسي، ومونغو بيتي، أي تلك التي صورت خيبة الأفارقة بعد خروج الاستعمار ووصول إخوتهم إلى السلطة، واعترف بأنه تأثر بها في صياغة كتابه "من مرحلة ما بعد الكولونيالية"، ورأى أن مؤلفها بيّن "أن ثمة تواصلا بين السلطات المنحرفة في المرحلة الاستعمارية، وبين الفاسدين الذين جاء بهم الاستقلال".

إنصاف الكاتب

الحق أن الكتاب الأفارقة، منذ أن بدؤوا يمارسون الأجناس الأدبية في أشكالها الحديثة، ركزوا اهتمامهم على تصوير نضال شعوبهم ضد المستعمر واحتفائها بطرد الغاصب. والكتب القليلة التي تناولت الاسترقاق والعنف المسلط على تلك الشعوب عملت على إدانة جرائم الرجل الأبيض في حق السود، ومطالبته بتعويضات عما اقترفه من جرائم ضد الإنسانية، ولا حديث عن دور الأفارقة أنفسهم في العسف والاستعباد وتجارة الرقيق إلا في كتب المؤرخين الأجانب.

إلا أن الأعوام الأخيرة شهدت أصواتا تدعو إلى مراجعة تاريخية، والاعتراف بدور الأفارقة في الجريمة، نذكر من بينهم الوسط أفريقي إتيان غويميدي في "آخر الناجين من القافلة"، والكاميرونية ليونورا ميانو في "موسم الظل"، ويامبو أولوغيم بطبيعة الحال، إلى جانب فرنسيين وفرنسيات من أصول أفريقية كالغوادالوبية ماريز كوندي الفائزة بجائزة نوبل البديل العام الماضي. رجال الدين أيضا اعترفوا بجرائم السود في حق إخوانهم، فقد نشر الأساقفة الأفارقة المجتمعون بجزيرة غوري السنغالية في أكتوبر 2003 إعلانا يطلبون فيه "صفح أفريقيا عن أفريقيا" جاء فيه "لنبدأ بالاعتراف بنصيبنا من المسؤولية في بيع الإنسان الأسود وشرائه، في الأمس واليوم... لقد شارك آباؤنا في تاريخ الخزي الذي مثله الاتجار بالسود واستعبادهم".

أما المؤرخ المالي تيديان دياكيتي، فأكد ما ذهب إليه أولوغيم، وأثبت بالوثائق أن الملوك الأفارقة كانوا أشد المعترضين على دعوات إلغاء العبودية التي اجتاحت بريطانيا، لأن في الإلغاء زوالا لتجارة مربحة استعاضوا بها عن صناعاتهم التقليدية طيلة قرون، بل إن القارة الأفريقية شكلت أقوى معاقل الصمود أمام قانون إلغاء العبودية، وهو ما عناه المؤرخ البنيني فليكس إيروكو في قوله "تشييئ الإنسان الأبيض للإنسان الأسود كان امتدادا لامتهان أشدّ وطأة مارسه عليه سود آخرون".

بقي أن نقول إن التاريخ أنصف أولوغيم، فقد صدرت روايته عن نفس الدار في طبعة جديدة عام 2003، وفي طبعة ثالثة عام 2017، أي السنة التي توفي فيها، وكانت مناسبة كي يحيّي النقاد والكتاب والدارسون هذا الأثر الرائد، ومؤلفه الذي لم يهدف إلى إدانة الأجداد، بقدر ما سعى إلى فهم ما جرى.

شاعران سعوديان يتأهلان في الحلقة السادسة من «شاعر المليون»

أبوظبي – انتظمت مساء الثلاثاء، فعاليات الأمسية السادسة من برنامج "شاعر المليون" في موسمه التاسع، وهو أهم برنامج يعنى بالشعر النبطي وتنتجه لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية بأبوظبي في إطار استراتيجيتها الهادفة لصون التراث وتعزيز الاهتمام بالأدب والشعر.

ومع إطلالة مقدمي البرنامج الإعلاميين أسمهان النقبي وحسين العامري، كان انطلاق مجريات الحلقة المباشرة السادسة باستعراض مقتطفات من الحلقة السابقة، وكواليس اللقاءات مع المتسابقين قبل وبعد صعودهم المسرح وإلقائهم قصائدهم، أمام لجنة تحكيم البرنامج التي تكللت آراء وانطباعات أعضائها في الحلقة الماضية من البرنامج بنتيجة تأهل كلا من أحمد بن عايد البلوي من السعودية بنتيجة 48/ 50، ومحمد الشريقي من سوريا بنتيجة 46/50 .

وجاءت نتائج بقية الشعراء الذين خضعوا لتصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون طوال الأسبوع الماضي، لتسفر عن تأهل أحمد بن جدعان العازمي من الكويت بنتيجة 77 بالمئة، بينما جاءت نتائج الشعراء الثلاثة غير المتأهلين كالتالي السعوديان مطلق الجبعاء الدويش بنتيجة60 بالمئة ومحمد بن نجر الذيابي بنتيجة 44 بالمئة، ومحمد بشير العنزي من البحرين بنتيجة 42بالمئة.

وشهدت الحلقة السادسة من برنامج شاعر المليون مشاركة 6 شعراء من 3 دول عربية، إضافة إلى شاعر عربي من أستراليا، وهم زايد عايض الرويس وحمود خلف القحطاني وتركي الحويدر السهلي من السعودية، وفهد القرين البدري من أستراليا، وسعيد جار الله المنصوري من الإمارات، وعبدالعزيز العبلان الديحاني من الكويت، والذين تنافسوا في تقديم قصائدهم أمام أعضاء لجنة التحكيم، المؤلفة من الأستاذ الباحث والروائي سلطان العميمي، مدير أكاديمية الشعر في أبوظبي، والدكتور غسان الحسن، والشاعر حمد السعيد.

كانت الإطلالة الأولى للمتسابق تركي الحويدر السهلي في قصيدة الانتماء إلى الدرعية وحبها، ورمزية دورها التاريخي في بناء وتوحيد السعودية.

فرح التأهل إلى المرحلة الثانية

وجاء المتسابق الثاني، حمود خلف القحطاني الذي لاقت قصيدته استحساناً من قبل أعضاء لجنة التحكيم.

وقبل قصيدة المتسابق الثالث زايد عايض الرويس، وجّه الشاعر تحية تعزية ورثاء لوالدة زميلته المتسابقة الإماراتية حمدة المر، أتبعها بأبياته في تصوير احتياج المتسابق أكان شاعراً أم شاعرة، إلى نظرة الحنان وموقف الاهتمام من والديه وخاصةً من الأم التي من مأمول الشاعر أن ينتظر خلف شاشة التلفاز، بينما تأبى حكمة القدر إلا أن تناظره من أعلى السماء.

أما المتسابق الرابع سعيد جار الله المنصوري فقد ألقى قصيدة وطنية قوبلت بحماسة جمهور مسرح شاطئ الراحة وإعجاب أعضاء لجنة التحكيم التي أشادت بالإلقاء الحماسي للشاعر.

ألقى المتسابق الخامس، عبدالعزيز العبلان الديحاني، قصيدة حول معاناة الشاعر وعذابه في الهجر والفراق والحيرة والشك.

بينما ألقى المتسابق السادس فهد القرين البدري القادم من أستراليا، قصيدةً معبّرة في إحساس المغتربين بالحنين الجارف إلى الأوطان، ومشاعر الشعراء تجاه أحبتهم الذين فارقوهم لظروف قاهرة، مردداً "بلاد العرب أوطاني"، القصيدة التي أشاد أعضاء لجنة التحكيم بها.

وقد حفلت الأمسية السادسة من أمسيات برنامج "شاعر المليون"،بالأداء الإنشادي الطربي الأصيل من الموروث الشعبي الأردني، في فن السامر والدحية الذي أدرجته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة "اليونسكو" في قائمة تراثها الثقافي المعنوي.

وفي ختام الأمسية كان الإعلان عن نتائج تصويت جمهور مسرح شاطئ الراحة وقرار لجنة التحكيم، حيث توزعت نتائج تصويت جمهور المسرح كالتالي سعيد جار الله المنصوري بنسبة 53 بالمئة، وعبدالعزيز العبلان الديحاني وفهد القرين البدري بنسبة 12 بالمئة، وحمود خلف القحطاني وزايد عايض الرويس بنسبة 8 بالمئة، وتركي الحويدر السهلي بنسبة 7 بالمئة.

> قصائد في التاريخ والحنين إلى الوطن وقيم التضحية والأمومة في الأمسية السادسة من برنامج «شاعر المليون»

بينما تأهل بنتيجة قرار لجنة التحكيم كل من زايد عايض الرويس بنتيجة 48/ 50، وحمود خلف القحطاني بنتيجة 47/ 50. فيما جاءت نتائج بقية الشعراء الذين سيخضعون لتصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون طوال أسبوع كامل كالتالي: تركي الحويدر السهلي بنتيجة 46/ 50، وعبد العزيز العبلان الديحاني بنتيجة 45/ 50، وسعيد جار الله المنصوري وفهد القرين البدري بنتيجة 44/ 50.

وأعلن في الختام عن شعراء الأمسية السابعة، يوم الثلاثاء 4 فبراير القادم، وهم:برزان السحيم الشمري من العراق، وحمد الموزري الرشيدي من الكويت، وعبد الله مبارك الحمومي من اليمن، وميثا الغافري من سلطنة عُمان، ومطرب بن دحيم العتيبي، ونبيل بن عاجان من السعودية.